

## الفصل الثالث

### الفصاحة وعلم الدلالة



## الفصاحة وعلم الدلالة

يأتى حديثنا من علاقة الفصاحة بعلم الدلالة فى مكانه المناسب ، فلقد سبق الحديث عن علاقتها بالأصوات ، وبقواعد النحو والصرف ، والتحليل اللغوى يجب أن يبدأ بالأصوات ثم بناء الكلمة ثم بناء الكلمات ، وينتهى بدراسة المعنى . ودراسة المعنى هى الهدف الذى يجب أن يتوج به الدرس اللغوى ، كما أن دراسة المعنى هدف لا يسمى إليه اللغويون فقط ، بل لأنه غاية قد شغلت الكثيرين من الباحثين فى مجالاتهم المختلفة مثل الفلاسفة ورجال القانون ورجال السياسة ، كما حظيت هذه الدراسة باهتمام علماء الأنثروبولوجيا ، ورجال الصحافة ، والنقاد ، والمترجمين .

ونستطيع أن نقول : إن علم الدلالة أو دراسة المعنى له علاقة بالبلاغة والفصاحة تفوق فى حجمها أية علاقة أخرى متصلة بأى فن أو علم آخر ، ويمكن أن نشير إلى الأبواب البلاغية الكثيرة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الدلالة مثل : الحقيقة والخيال ، والمقام والمقال ، والإيجاز والإطناب والمساواة ، الفصل والوصل . . . ، لكننا نؤثر التخلّص من الاستطراد ونكتفى بإبراز الصلة التى بين الفصاحة وعلم الدلالة .

ونسأل الآن : ما المجالات التى تجمع بين الفصاحة وعلم الدلالة ... ؟ .

توجد فى الحقيقة مجالات كثيرة نودّ أن نصنفها فى الهيكل العام الذى ورد فى أقسام الفصاحة ، ونعنى بذلك ، فصاحة الكلمة المفردة ، وفصاحة الكلام . وفصاحة المتكلم ، أى تلك الأقسام التى استقرت عند البلاغيين المتأخرين . ونبدأ فيما يلى بما يندرج تحت فصاحة المفرد :

أولا : العلاقة بين فصاحة المفرد وعلم الدلالة

ثمة علاقات عديدة بين فصاحة المفرد وعلم الدلالة يمكن أن نوضحها كما يلى :

## ١ - علاقة الأصوات أو الالفاظ بمعانيها:

من المسلم به أننا لا نستطيع أن نزل الصوت عن معناه الملازم له ، ولو افترضنا أننا قادرون على عزله ، فإنه يتحول إلى صوت منغم يوحى بمعنى من المعانى . والصوت المسموع سواء كان مفهوما أم غير مفهوم — يكون مصحوبا بمعان أخرى نستوحىها من المتكلم ، بل أننا نضيق على ما نسمع معانى عديدة متعمقة فى داخلنا .

فالاصوات والمعانى شيان متلازمان ، أى أن الاصوات — والإنسانية منها خاصة — لا بد أن توحى بمعنى ، والعكس ليس صحيحا لأن المعانى قد تستوحى من نواح كثيرة كالبصر ، والشم ، واللمس ، وغير ذلك .

ولقد مرت العلاقة بين الاصوات ومعانيها باعتقاد هام من جانب الباحثين اللغويين وغيرهم هو أن الاسماء أو الالفاظ يجب أن تكون مشاكلة لمعانيها ، وهو ما يعرف أو ما يقابل عند الاوربيين Onomatopoeia ويترجمها بعض الباحثين بـ ( تقليد أصوات الطبيعة ) وذلك كما فعل أستاذنا الدكتور محمود السمران<sup>(١)</sup> ويترجمها أستاذنا الدكتور ظاظا بـ « الالفاظ ذات الجرس المعبر »<sup>(٢)</sup> كما أن بعض الباحثين يتخرج من ترجمتها ، وذلك مثلما فعل الدكتور ابراهيم أنيس فى كتبه ، ويترجمها الدكتور النويجى بـ « الحكاية الصوتية »<sup>(٣)</sup> .

وقد تنبه اللغويون العرب إلى هذه الظاهرة منذ مئات السنين ، ولقد ذكر السيوطى أن عباد بن سليمان الصميرى قد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية .

ويورد السيوطى أن بعض من كان يرى وأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الالفاظ لمعانيها ، فسل : ما مسمى ( إذغاغ ) وهو بالفارسية الحجر ، فقال :

(١) الدكتور السمران : علم اللغة ص ٤٠٠ .

(٢) اللسان والانسان ص ٢١ .

(٣) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه ص ٧١ .

أجد فيه يبسا شديدا ، وأراه الحجر<sup>(٤)</sup> .

ويورد السيوطي رأى من ينكر عليه هذا القول : « لانه لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للمعدين ، كالقصر للحيض والطهر ، والجون للابيض والأسود . . » ، ويرى السيوطي أن الفرق بين مذهب أهل العربية ومذهب عباد أنه يرى المناسبة بين الالفاظ والمعاني ذاتية موجبة<sup>(٥)</sup> .

أما ابن جنى فإنه قد أفرد لهذه الظاهرة صفحات كثيرة ليدل على أن هذه الظاهرة تستوجب الاهتمام ، واستهل حديثه في هذا الباب برأى للخليل وآخر لسيويه ، فيورد أن الخليل قال : « . . كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازي تقطيما فقالوا : صرصر ، .

وينقل عن سيويه ما يؤكد هذه الظاهرة عندما قال : إن المصادر التي جاءت على ( الفَعْلَان ) قد أتت وأفادت الاضطراب والحركة ، نحو التَقَرَّان والغَسَّيان والغَسَّيان ، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال<sup>(٦)</sup> .

أما ابن جنى فإنه قد أكد نظريته إلى هذه الظاهرة بعدة أشياء هي<sup>(٧)</sup> :

(أ) يرى أن المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير مثل : الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقة ، والجرجرة ، والقرقرة .

(ب) المصادر والصفات على وزن ( فَعْلَى ) مثل : البَشَكى ، والجرزى ، والولقى .

(ج) تكرير العين في المثال دليل على تكرير الفعل نحو : كَرَّر ، قطع ، فتح ، غلَّق وتكررت العين لأنها أقوى من الفاء واللام في نظره .

(٤) المزهر ج ١ ص ٤٧ .

(٥) المزهر ج ١ ص ٤٨ .

(٦) الخصائص ص ٥٤٤ .

(٧) أنظر الخصائص باب « في أساس الالفاظ أشباه المعاني » من ص ٥٤٤ : ص ٥٦٠ .

(د) تقطيع الفعل دليل على تقطيع معناه مثل : صرصر ، حقيق .

(ح) تكرير المين واللام للمبالغة كما في : دمكك ، صمصح ، عركرك ، عصبصب ، عشمشم .

(و) مقابلة الالفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث : ويرى ابن جنى أن هذا باب عظيم واسع ، ونهجه مستقيم هند العارفين به ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها . ومن ذلك :

١ - ( خَضِمَ ) و ( قَضَمَ ) : فالخَضِم لاكل الرطب كالخبيطخ والْقَضَم وما كان من نحوها من المأكول الرطب .

والقَضَم لاكل اليابس نحو : قَضَمَت الدابة شعيرها<sup>(٨)</sup> .

ويستدل ابن جنى على رأيه هذا بالآثار المروية مثل : قد يدرك الخضم بالقضم ، أى قد يدرك الرخاء بالشد ، واللين بالكثف . ومثل قول أبي الدرداء : يخضمون ونقضم ، والموعده لله .

ويرى ابن جنى أن العارفين بهذه الظاهرة هم الذين قد اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، واختاروا القاف لصلابتها لليابس ، حذوا المسموع الأصوات على محسوس الأحداث<sup>(٩)</sup> .

ويورد السيوطى :<sup>(١٠)</sup> القضم للفرس ، والخضم للإنسان ، وأن القضم بأطراف الإنسان ، والخضم بأقصى الأضراس .

٢ - النَّضْج للماء ونحوه ، والنضج أقوى منه ، مثل قول الله تعالى :

(٨) نلاحظ أن الضاد تحولت الى طاء فى العامية المصرية « قطم » .

(٩) الخصائص ص ٥٥٠ ، ونلاحظ أن كلام ابن جنى هذا لا يخلو من التسفس لأنه أرجع وجود الخاء والقاف عند دلالتهما على المعانى السابقة الى العلماء العارفين لهذه الظاهرة فقط وكأنهم قد تعمدوا ذلك الاختيار فى بناء اللفظتين وفى رأينا أن العلماء لا ارادة لهم فى ذلك .

(١٠) المزهر ج ١ ص ٥١ .

و فيهما عينان تضاحتان ، فجعلوا الحاء لحقهما للماء الخفيف ، والحاء لغاظها لما هو أقوى منه .

٣ — القَـدَّة طولا ، والاقْطَّ عرضا ، لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعاً له من الدال ، فجعلوا الطاء للمناجزة لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال للمباينة لما طال من الأثر وهو قطعه طولا .

٤ — قَرَّتَ الدم ، و قَرَدَ الشيء ، قرط بقرط ، التاء في نظر ابن جني أخفت الثلاثة ، فاستعملوها في الدم إذا جف ، لأنه قصْدٌ ومستخف في الخس عن القروء ، الذي هو التباك في الأرض ونحوها ، وجعلوا الطاء وهي أعلى الثلاثة صوتاً ( للقرط ) الذي يسمع ، و قَرَدَ من القَرْدِ وذلك لأنه موصوف بالقلة والذلة .

٥ — الوسيْلة والوصيلة : الصاد أقوى صوتاً من السين لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيْلة ، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها اتصال الشيء بالشيء ، وعماسته له ، وكونه في أكثر الأحوال بعضها له ، كاتصال الأعضاء بالإنسان ، والتوسل معنى يَضَعُفُ ويَضَعُفُ أن يكون المتوسل جزء أو كالجُزء من التوسل إليه وهذا واضح . فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى ، والسين لضعفها للمعنى الأضعف .

٦ — صَعِدَ وصَعِدَ : فجعلوا الصاد لأنها أقوى لما فيه أثر مُشَاهِد يرى ، وهو الصعود في الجبل والحائط ونحو ذلك ، وجعلوا السين لضعفها لما لا يظهر أو يُشَاهَد حساً ، إلا أنه مع ذلك فيه صَعُودُ الجَدِّ ، لا صعود الجسم .

ومن ذلك أيضاً صَدَّ وصدَّ فالسد دون الصد ، لأن السد الباب يُسَدُّ والمنَّة نظرة ونحوها ، والصدَّ جانب الجبل والوادي والشعْب : وهذا أقوى من السد الذي يكون لشعْب الكوز ورأس القارورة ، ونحو ذلك ، فجعلوا الصاد لقوتها ، للأقوى ، والسين لضعفها ، للأضعف .

ومن ذلك القسم والقسم ، فالقسم أقوى فعلا من القسم ، لأن القسم يكون معه الدق ، وقد يقسم بين الشيئين فلا يُشكك أحدهما ، فلذلك خصت بالاقوى الصاد ، وبالأضعف السين .

( ز ) قد يضاف إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالاحداث المعبر عنها بها بالترتيب ، وتقديم ما يضافى أول الحدث ، وتأخير ما يضافى آخره ، وتوسط ما يضافى أوسطه ، سوفا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب ، مثل كلمة ( بحث ) ، ويرى ابن جنى أن الباء لغلظها تشبه بصوتها خففة الكف هل الأرض ، والهاء فيها تشبه مخالف الأسد ورائن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والياء للثقل ، والذئب للثبات ، والذئب للثبات (١١) .

ومن ذلك : شد الحبل ونحوه ، فالشين بما فيها من التفشى تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليه إحكام الشد والجذب ، وتأريب العقد ، فيعبر عنه بالبدال التى هى أقوى من الشين لاسيما وهى مدغمة ، فهو أقوى لضعفها وأدل على المعنى الذى أريد بها ، أما الشدة فى الأمر فإنها مستعارة من شد الحبل ونحوه .

ومن ذلك أيضا جبر الشيء بجبره ، قدّموا الجيم لأنه حرف شديد ، وأول الجبر مشقة على الجار والمجرور جميعا ، ثم عقبوا ذلك بالراء ، وهو حرف مسكرر ومكرر فى نفسه أيضا ، وذلك لأن الشيء إذا جبر على الأرض فى غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعدا عنها ، ونازلا إليها . فكانت الراء أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف .

( ح ) ما يسميه ابن جنى ( تسميه الأشياء بأصواتها ) كالحازباز لصوته ، والبط لصوته ، وغاق للغراب .

ومن ذلك :

• كالبجر يدعو هَيْمَةً وَهَيْمَةً أ •

وذلك حكاية لصوت البحر .

( ط ) كثرة اختلاط الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون بحرف الفاء تفيد غالبا معنى الرهن والضعف ونحوهما مثل (١٢) .

( الدَّالْف ) للشيخ الضعيف ، والشيء التالف .

و ( الطَّالِف ) و ( الظَّالِف ) : المجَّانُ وليس له عصمة الثمين .

و ( الطَّنْفُ ) : لما أشرف خارجا عن البناء وهو إلى الضعف لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأمل .

و ( الدَّنْفُ ) : العيب ، وهى إلى الضعف .

و ( الدَّنْفُ ) : المريض .

و ( التَّنْرَفَةُ ) : لانها إلى اللين والضعف .

و ( الطَّنْرَفُ ) : لأن طرف الشيء أضعف من قلبه وأوسطه .

و ( الفَرْدُ ) . لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك .

و ( الفَتُّورُ ) : للضعف .

و ( الرَّفَّتُ ) : للاكسار .

و ( الرَّدِيفُ ) : لأنه ليس له تمكّن الأول .

و ( الطَّنْفَلُ ) : للصبي لضعفه .

و ( الطَّنْفَلُ ) : للرخص .

و ( الدَّنْفَلُ ) : للريح المكروهة ، فهى منبوذة مطروحة .

و ( الدَّفَنُ ) : الدفن ، وقالوا الدنيا (أُمُّ دَفْنٍ) سبب لها وتوضع منها .

و ( الفَلَسْتَةُ ) : لضعفَةُ الرأى .

و ( كَفُتِلَ الْمَغْزَلُ ) : لانه تَفَنَّ واستدارة وذلك إلى وهى وضعف ) .

و ( الفَطْرُ ) الشَّقْ ، وهو إلى الوهن .

وبالإضافة إلى هذا قد تعددت ملاحظات ابن جنى عن علاقة الالفاظ بمعانيها وتستطيع أن توجز ذلك فيما يأتى :

لقد عقد ابن جنى بابا عنوانه فى الاشتقاق الأكبر ، وهو فى مقابل الاشتقاق الأصغر الذى يعرفه الغويون ويقول ابن جنى : « الاشتقاق عذى على ضربين : كبير وصغير ، فالصغير ما فى أيدي الناس وكتبهم ، كأن تأخذ أصلا من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه ، وإن اختلفت صيغه ومبانيه ، وذلك كتركيب ( س ل م ) فإنك تأخذ معنى السلامة فى تصرفه نحو : سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلى والسلامة ، والسليم : اللديغ أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة ، وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته ، وبقية الأصول غيره كتركيب ( ض ر ب ) و ( ج ل س ) و ( ذ ب د ) على ما فى أيدي الناس ، فهذا هو الاشتقاق الأصغر ، وقد قدم أبو بكر رحمه الله رسالته فيه ، بما أغنى عن إعادته لأن أبا بكر لم يأل فيه نصحا وإحكاما وصحة وتأنيلا .

وأما الاشتقاق الأكبر : فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحد ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وأن تباعد شئ من ردِّ بلطف الصنعة والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التركيب الواحد . (١٣) نحو : ( ك ل م ) ( ك م ل ) ( م ك ل ) ( ل ك م ) ( ل م ك ) ، وكذلك : ( ق و ل ) ( ق ل و ) ( و ق ل ) ( و ل ق ) ( ل و ق ) . وهذا أعوص مذهبا ، وأحزن

مضطربا ، وذلك أنا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة والشدّة ، وتقاليب القول الستة على الإصرار والخفة<sup>(١٤)</sup> .

وابن جنى نفسه يتحفظ قليلا في رأيه هذا ولا يدعى باطراد ما يسميه بالاشتقاق الأكبر ويقول في ذلك : .. واعلم أنا لا ندعى أن هذا مستمر في جميع اللغة ، كما لا ندعى الاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة<sup>(١٥)</sup> .

لكن ابن جنى يعود إلى علاقة الأصوات بمعانيها متحدثا عن الاشتقاق الأكبر وذلك فيما أسماه ( باب في تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني ) ويرى أن اقتراب الأصلين الثلاثين يؤدي إلى الاشتراك في الدلالة مثل ضيّا ط وضيطار ، ولوقة وألوة ، ورخو ورخود ، وكذلك اقتراب الأصلين ثلاثيا أحدهما ، ورباعيا صاحبه ، أو رباعيا أحدهما ، وخماسيا صاحبه مثل دِمث ودَمثر ، وسِبَط وسِبَطَر ، ومثل دردب ودرديس<sup>(١٦)</sup> . وهذا في نظر ابن جنى يؤدي إلى الاشتراك في الدلالة . كما يرى ابن جنى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الكلمات التي اشتركت الأصوات بل يرى أنها تظهر في الأصوات التي تتقارب محارجهما أو خصائصها الأخرى مثل : ( الغدر ) و ( الحتل ) ومثل ( السجيل ) و ( التصيل ) ومثل ( جلف ) و ( جرم ) ، ومثل ( عصر ) و ( أزل )<sup>(١٧)</sup> .

ويورد السيوطي لصاحب الجهرة مجموعة من الالفاظ تماثلت مع معانيها<sup>(١٨)</sup>

(١٤) الخصائص ج ١ ص ٥٢٦ - ص ٥٢٧ .

(١٥) الخصائص ج ١ ص ٥٣٠ .

(١٦) الخصائص ج ١ ص ٥٣٧ .

(١٧) الخصائص ج ١ ص ٥٤٠ - ص ٥٤١ .

(١٨) المزهر ج ١ ص ٥٢ - ص ٥٣ - ولأبي بكر ابن دريد كتاب « الاشتقاق » الذي حاول فيه أن يعزل الأسماء والأعلام الخاصة بالقبائل والامكنة محاولا أن يربط بين الأسماء المتقاربة في عدد من أحرفها .

كما وضع ابن فارس معجما هو « معجم مقاييس اللغة » وقد أشرنا إليه في صدر هذا البحث وحاول فيه أن يستنبط العلاقات بين الالفاظ ودلالاتها ، وهو يسلك سبيل ابن جنى لكن ابن فارس قد أسرف .

- العظمطة : بإهمال العين هى تتابع الأصوات فى الحرب وغيرها .  
 والقططة بالإعجام : صوت غليان القدر وما أشبهه .  
 والجمجمة بالجيم : أن يخفى الرجل فى صدره شيئاً ولا يبيديه .  
 والجمجمة بالحاء : أن يردّد الفرس صوته ولا يصهل .  
 والدحناح بالذال : الرجل القصير .  
 الرحراح بالراء : الإناء القصير الواسع .  
 والجفجفة بالجيم : هزيز المركب وحقيقه فى السير .  
 والخفخفة بالحاء : حفيف جناحى الطير .  
 ورجل دحرج بفتح الدالين وإهمال الحاءين : قصير .  
 والجرجرة بالجيم : صوت جرع الماء فى جوف الشارب .  
 والخرخرة بالحاء : صوت تردد النفس فى الصدر ، وصوت جرى الماء مضيق .  
 والدردرة : حكاية صوت الماء فى بطون الأودية وغيرها إذا تدافع فسمعت له صوتاً .  
 والغرغرة : صوت ترديد الماء فى الحلق من غير معجّ ولا إساعة .  
 والقرقرة : صوت الشراب فى الحلق .  
 والههرهه : صوت ترديد الاسد زفيره .  
 والكهكهه : صوت ترديد البعير هديره .  
 الققهقهه : حكاية استغراب الضحك .  
 الوعوهه : صوت نباح الكلب إذا رددّه .  
 والوقوقه : اختلاط أصوات الطير .  
 والوكوكه : هدير الحمام .  
 الزعزعه بالزاي : اضطراب الاشياء بالريح .

- والزعزعة بالراء : اضطرب الماء الصافي والشراب على وجه الأرض .  
 والزغزغة بالزاي وإعجام الغين : اضطرب الإنسان في خفة ونزق .  
 والكركرة بالكاف : الضحك :  
 والقرقرة بالقاف : حكاية الضحك إذا استغرب الرجل فيه .  
 والرفرفة بالراء : صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح .  
 والزقزقة بالزاي : صوت خفيف الريح الشديد المهبوب ، وسمعت زقزقة  
 المركب إذا سمعت هزيمة .  
 والسفشفة باهمال السين : تحريك الشيء من موضعه ليقطع مثل الوتد وما  
 أشبهه ومثل السن .  
 والشغشفة بالإعجام : تحريك الشيء في موضعه ليتمكن ، ويقال شغشف  
 السنان في الطعنة إذا حركه ليتمكن .  
 والوسوسة بالسين : حركة الشيء كالخلي .  
 والوشوشة بالإعجام : حركة القوم وهمس بعضهم إلى بعض .  
 وشبهه بذلك ما جاء في فقه اللغة للثعالبي ونقله السيوطي أيضا :  
 إذا انحسر الشعر عن جانبي جبهته فهو أنزع ، فإذا زاد قليلا فهو أجلاج ، فإن  
 بلغ الانحسار نصف رأسه فهو أجلى وأجله<sup>(١٩)</sup> .  
 والنقش في الحائط .  
 والرقش في القرطاس .  
 والوشم في اليد .  
 والوسم في الجلد .

---

(١٩) انظر فقه اللغة للثعالبي والمزهر ج ١ ص ٥٤ - ص ٥٥ .

والرشم على الخنطة والشعير .

والوشى فى الثوب .

وجاء فى فقه اللغة للثعالبي أيضا (٢٠) .

الضرب بالراحة على مقدّم الرأس :

وعلى القفا :

وعلى الخد ببسط الكف :

وبقبض الكف :

وبكلتا اليدين :

وعلى الجنب بالإصبع :

وعلى الصدر والجنب :

وعلى الخنك والذقن :

ومثل :

تخذفّه بالحصى .

وتخذفّه بالعصا .

وتخذفّه بالحجر .

ومثل :

إذا أخرج المكروب أو المريض صوتا رقيقا فهو : الرقيق

فإذا أخفاه فهو : الهين

فإذا أظهره فخرج خافيا فهو : الخمين

فإذا زاد فيه فهو : الالين

(٢٠) انظر فقه اللغة للثعالبي والمزهر ج ١ ص ٥٤ - ص ٥٥ .

أما عن العلاقة بين الأصوات ومعانيها عند المحدثين فإن أهمها هو ما كتبه  
يسيرين :

وترجع أهمية كتابات يسيرين Otto Jespersen في هذه الناحية إلى وجهة  
نظره التي تمثل موقفا وسطا بين أنصار المناسبة الصوتية ومعارضها فلقد دافع  
عن ( هبلت ) Humboldt توفي سنة ١٨٣٥ أحد أنصار المناسبة الطبيعية بين  
الألفاظ ومعانيها ، وذلك عندما عارضه ( مدفيج ) Madvig توفي سنة ١٨٤٢ .  
ويرى يسيرسن أن ( مدفيج ) قد تجنى على ( هبلت ) لأنه لم يدع أن مثل هذه  
الظاهرة تطرد في كل كلمات اللغة . ويسيرسن يميل لأصحاب المناسبة بين الألفاظ  
في اللغات ، كما يرى أن بعض الكلمات التي تتمثل فيها هذه الظاهرة تزول منها مع  
الزمن . بينما تنكسب كلمات أخرى هذه السمة ، كما يرى أن كلمات اللغات تزداد  
مع الأيام لإحياء الدلالات ، وتنكسب الألفاظ بمرور الزمن قدرا أكبر من  
الرمزية . ويأمل في أن يأتي المستقبل باليوم الذي تصبح فيه الصلة بين الألفاظ  
ودلالاتها أكثر وضوحا (٢١) .

ولقد قام عدد من الباحثين بإجراء تجارب عديدة للتعرف على مدى العلاقة  
بين الأصوات ودلالاتها. (٢٢) ونرى أن توقف عند واحدة منها ، هي تلك التي  
قام بها الدكتور إبراهيم أنيس بين بعض طلاب الكليات والمدارس ، وتتلخص  
هذه التجربة في أنه قد عرض على مجموعة من طلبة اللسانيات بكلية دار العلوم

(21) Language Its Nature, Development And Origin. Chapter  
x x . p p. 396 — 402 .

(٢٢) ذكر اللغوي الروسي فيجوتسكي في كتابه الذي ترجم إلى  
الانجليزية ونشر في الولايات المتحدة باسم Thought and Language  
عدة تجارب لعدد من العلماء حاولوا أن يربطوا بين الألفاظ ومدلولاتها في أذهان  
سامعيها الذين يجهلون معانيها .

مجموعة من الكلمات النادرة المهجورة وطلب من كل طالب أن يسجل ما توحى به كل لفظة من دلالة في ذهنه، ثم عرض هذه المجموعة نفسها من الالفاظ على مجموعة أخرى من طلبة التوجيهية، في إحدى المدارس الثانوية، وكان عدد المجموعة المختارة من طلبة الليسانس بدار العلوم أربعة وعشرين، وعدد طلبة التوجيهية الذين قد أجريت عليهم التجربة ثلاثة وعشرين.

ومجموعة الكلمات التي عرضها على المجموعتين هي :

الهبلىع ، الجرفاس ، الخيتيمور ، النعثل ، القهبلس ، القذهملة ، الطربال ، الشنعوف ، العثلط ، القفندر (٢٣).

وهذه الالفاظ مأخوذة من رسالة لآبى حيان التوحيدي كتبها في الإنفاص من الصاحب بن عباد لموقفه من أحد الشعراء حين أتمكر على الشاعر أن يتجرأ على قول الشعر ، وهو يبجل كثيرا من الغريب ، ثم سرد الصاحب للشاعر طائفة كبيرة من الالفاظ المهجورة التي يفخر بمعرفتها ، ومن تلك الالفاظ الكلمات العشر السابقة .

وقد رأى الدكتور إبراهيم أنيس في تجربته أن يلمح هؤلاء الطلبة بما يمحصر تخمينهم في نطاق محدود ، فذكر أن ( الهبلع ، الجرفاس ، والخيتيمور ، والنعثل ) صفات للرجل .

وأن ( القهبلس ، والقذهملة ) من صفات المرأة .

وأن ( الطربال ) صفة للبناء .

وأن ( الشنعوف ) جزء من الجبل .

وأن ( العثلط ) صفة للبن .

وأن ( القفندر ) لواحدة من الجمال أو القبح .

واستخلص الدكتور أنيس من تجربته النتائج الآتية :

١ — أن مجموعة الطلبة الذين ينتمون إلى وسط اجتماعى واحد، ويشتركون فى الثقافة والبيئة التعليمية قد استنبطوا دلالات مشتركة بينهم بنسبة ٦٠٪ فى المتوسط . والنسبة الباقية القليلة هى التى يمكن إرجاعها إلى التجارب والأمرجة الخاصة .

٢ — الدلالات المشتركة لم تكن دائماً الدلالة المعجمية الصحيحة ، فلا تكاد تتجاوز الإجابة الصحيحة ٤٢٪ ، أى أن استنباط الدلالة الصحيحة من اللفظ أمر عسير حتى على الذين قطعوا شوطاً من الثقافة اللغوية كأبناء دار العلوم .

٣ — استخلص الدكتور إبراهيم أنيس من التجربة السابقة أن الألفاظ التى يحتفظها المرء فى حافظته لها أثر فى توجيه دلالات الألفاظ المتقاربة معها ، فإذا دل استقرار المستعمل من ألفاظ اللغة على أن نسبة توالى الفاء والجيم مثلاً أكثر من توالى والفاء الصاد ، فقد يتصادف أن ما يحفظه المرء من ألفاظ يعطى نسبة أخرى قد تكون عكسية ، فيها توالى الفاء والصاد أكثر من توالى الفاء والجيم . ويقال حينئذ : أن توالى الفاء والصاد فى ذهن شخص معين أوضح وأكثر شيوعاً منه فى ذهن آخر ، ولكن الشخصين يخضعان معاً للنظام العام الذى تجري عليه ألفاظ اللغة .<sup>(٢٤)</sup> وينتج عن ذلك أن تختلف نسبة شيوع المجاميع الصوتية فى ذهن كل منا ، فبعضها أوضح من الآخر وأقرب إلى التذكر ؛ فمجموعة مثل ( ملح ) تدعو إلى ذهن بعض الناس بمجموعة مثل ( دلع ) وفى ذهن الآخرين مجموعة أخرى مثل ( لمح ) ولذا نرى أن ( ملح ) قد يوحى إلى الفريق الأول دلالة ( الدلع ) والميوعة والتخشب ( وقد يدعو إلى ذهن الفريق الآخر دلالة ( اللمعان ) والبريق والضوء )<sup>(٢٥)</sup> .

(٢٤) دلالة الألفاظ ص ٨٥

(٢٥) دلالة الألفاظ ص ٨٥

ولستطيع أن نقول : إن التجارب التي تجرى في اللغة ليس لها ما تميز به من نتائج دقيقة محكمة مثل النتائج العملية التي تعارده ولا تختلف ، لكنها مع ذلك مفيدة إلى حد كبير في توجيه وخدمة البحوث اللغوية عامة والصوتية خاصة ، لكن ثمة بحوث في الأصوات اللغوية تتميز بما للتجارب العلمية من نتائج دقيقة ، وذلك لدخولها في الفيزياء واستعماتها بها .

لكننا نلاحظ أن الدقة العلمية التي يمتاز بها التجارب الصوتية قد لا تساعدنا في دراسة الصلة بين الأصوات ودلالاتها ، لأن الآلات المستخدمة تدرس الأصوات فقط ، أو تظهر مؤشرات تختص بالأصوات دون معانيها ومثال ذلك أننا لو استخدمنا في دراستنا جهازاً علياً مثل الأوسيلوجراف Oscillograph<sup>(٢٦)</sup> أو راسم الذبذبات فإننا سنحصل على خصائص صوتية مثل حدة الصوت وارتفاعه والزمن ، وغير ذلك من الخصائص التي يمكن أن توصف بها أية سلسلة كلامية أخرى ، وهذا يعني أن الدلالات أو المعاني تطرح جانباً في المعامل الصوتية ، عند دراسة أو اختبار السلاسل الكلامية المختلفة في الشعر والنثر ، وقد تدخل عوامل أخرى في تلك الاختبارات فتغير الأثر أو النتيجة التي يخرجها الأوسيلوجراف مثل طريقة منشد الشعر مثلاً ، أو الأداء الذي يقوم به المتكلم عند الالتقاء ، ويمكن أن تتدخل عوامل أخرى كالوضوء ، وهذه العوامل وغيرها تؤثر في الذبذبات التي يتركها الأوسيلوجراف ، وربما دفعت هذه النتائج بعض الباحثين إلى أن ينصروا أنهم قادرون على إيجاد الإيقاع أو الصوت بمعزل عن معناه ، وذلك كما زعم جورج ستوارت G. R. Stewart عندما قال في كتابه « تشكيل الشعر الإنجليزي The Technique of English Verse »<sup>(٢٧)</sup> ، والنظم يمكن أن

(٢٦) الأوسيلوجراف هو جهاز يعطي آثاراً كتابية تمثل السلسلة الكلامية التي يراد اختبارها ، والآثار الممثلة لأي سلسلة كلامية تتكون من عدد كبير من عناصر صغيرة غير متطابقة .

أنظر علم اللغة د. السمران ص ١١٦ .

(٢٧) نظرية الأدب ص ٢١٩ - تأليف رينيه ويليك وأوستن وارين

ترجمة : د. حسام الخطيب .

يوجد بدون معنى ، وأنه مادام الوزن مستقلاً استقلالاً جوهرياً عن المعنى فإن لنا الحق في أن نحاول إعادة إنتاج البنية الوزنية لأى بيت بمعزل عن معناه كلية . ويقول صاحبنا نظرية الأدب تعليقاً على رأى ستورات : . . . فإذا تجاهلنا المعنى تخليفاً عن مفهوم الكلمة والجملة ، وتخليفاً بالتالى عن إمكانية تحليل الفروق بين أشعار شعراء مختلفين ، فالشعر الإنجليزى يتعين إلى حد كبير بالتساغم بين التعبير المسبوك ، والدافع الإيقاعى ، كما أن الإيقاع الفعلى للحديث مشروط بتقسيم العبارات ، ولا يمكن الوثوق بتقسيم العبارات إلا على أساس التألف مع معنى النظم .<sup>(٢٨)</sup> ، كما يؤكد المؤلفان هذه الفكرة في نهاية الفصل الثالث عشر : « إن الأوزان قد استعادت اليوم التماس الضرورى لها من اللغويات ، ومع علم الدلالات اللغوية في الأدب ، ونحن نرى أن الصوت والوزن يجب أن يدرسا كمنصرين في مجمل العمل الفن ، وليس بمعزل عن المعنى . . . »<sup>(٢٩)</sup> وما يردده المحدثون من ضرورة عدم الفصل بين الصوت أو الالفاظ والدلالات قد نبه عليه النقاد العرب منذ مئات السنين ، ومنذ أعلن الجاحظ أن المعانى كالأرواح ، والالفاظ كالاجساد ، ولأحياء لأحدهما بدون الآخر<sup>(٣٠)</sup> . ويعترف اللغويون في النهاية أن الأدباء أقدر من غيرهم على ملاحظة الصلة بين الأصوات ومعانيها ، وأن ما يدركونه من دلالات الأصوات غير واضح لغيرهم ، ويعتبر اللغويون أنفسهم غير مسئولين عن المعانى التى يضيفها الأدباء ، أو يدركونها من وحي الأصوات .

(٢٨) المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٢٩) المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٣٠) رسالة فى الجذ والهزل ص ٨٥ تحقيق كراوس - الحاجرى .

وانظر رسالة الماجستير التى تقدمنا بها الى آداب القاهرة بعنوان « مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ » فى الفصل الذى عقدناه عن اللفظ والمعنى والذى وقفنا فيه بين ما يوحى أنه يفضل الالفاظ على المعانى ، وهذه النصوص ص ٩١ - ص ١١٦ .

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس : الشاعر ينتقى من الالفاظ ، ويتخير ويفاضل بينها ، ويميز بعضها على بعض متخذا في نظامه البيت من الشعر لفظا خاصا يأل غيره ، لأن أصواته توحى إليه مالا توحى أصوات غيره . . وأن الاستعمال الأدبي للكلمة في شعر أو نثريوثق على توالي الايام بين الاصوات والمدلولات ، ولا سيما في عبارات المشهورين من الأدباء التي قد تبلغ عند بعض الشعوب حد النقدس ، أما المعوى فيأب تقدير الظواهر المعوية إلا في ضوء أسسه العلمية من بحث الاصوات والصيغ وتراكيب الكلمات ، ويرفض تقدير اللغات على أساس ما ظهر فيها من آثار أدبية . . (٢١)

ومن الجدير بالذكر تلك الدراسة التي قام بها موريس جرامونت Maurice Grammont للشعر الفرنسي التي وصفها صاحبها ككتاب نظرية الادب بأنها أفضل وأدكى دراسة للشعر الفرنسي فيما يتعلق بتعبيره ، فقد صنف كل الحروف الصوتية والسماكة في الفرنسية ، ودرس تأثيراتها المعبرذ لدى الشعراء ، فوجد على سبيل المثال أن الأحرف الصائنة تستطيع التعبير عن الصغر والسرعة والرشاقة وماشابه ذلك . وقيل أيضا : إن هناك رابطا بين الحروف الصائنة الامامية ( z, h ) والموضوعات الرقيقة ، السريعة ، المشرقة والجليلة . كما أن هناك ترابطا آخر بين الحروف الصائنة الخلفية ( O, U ) والموضوعات الثقيلة ، البطيئة ، السمجة المطردة ، كل ذلك يمكن أن تثبته التجارب السمعية . (٢٢)

وقد نلاحظ في لغتنا العربية مايشبه هذه النظرة إلى الاصوات الصائنة الامامية ( z, h ) مثل التصغير الذي يراد به التلميح ، أو الذي يراد به التصغير فقط ، مثل بعض الكلمات التي تجيء على وزن ( فَعَيْلٌ و ) ( فَعَيْلٌ و ) ( فَعَيْلٌ و ) (٢٣)

(٢١) من أسرار اللغة ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢٢) نظرية الأدب ص ٢١١ .

(٢٣) أشرنا فيما سبق إلى الزيادة في بنية الكلمة وما يتبعها من زيادة في المعنى ، أما الصوائت القصيرة فانها تقوم بتحديد الوظيفة في الأسماء والأفعال العربية ، كما تحدد النوع أيضا كما يحدث في الكسرة التي تحدد المؤنث .

ومثل ما نلاحظه في العامية عندما يراد الإفراد والتصغير ، فنلاحظ أنه يضاف الالف والياء إلى المفرد في اللهجة القاهرية مثل : ( حَبَايَة ) ، ( لَامُونَايَة ) ، ( مَنجَايَة ) ، ( بَايَايَة ) . . ويقصد بذلك حبة ، ليمونة واحدة ، ثمرة واحدة من المانجو ، ثمرة واحدة من البلح . .

وقد يقصد بهذه الإضافة في العامية القاهرية أيضا التمليح والفسكاعة مثل : بقراية ، جاموساية ، ويراد بذلك كله إفراد المؤنث مع التصغير ، وغالبا مايكون ذلك في استعمال النساء والأطفال .

## ٢ - الغرابة وعلاقتها بادوات الدلالة :

الدلالات أو المعاني تتخذ وسائل مختلفة حتى تظهر إلى الوجود ، وقد تكون تلك الوسائل أو الادوات قائمة على الصوت أو الصيغ "صرفية" ، أو التركيبات النحوية ، أو الدلالات المستمدة من المعاجم والقرآن المختلفة .

والدلالات التي تقوم على الصوت قد تكون كلمة أو نبرا أو تنغيما ، ولقد فصلنا القول في هذه الوسائل أو الادوات ، وذلك في الفصل الذي عقدناه عن علاقة علم الأصوات بالفصاحة .

وتتضح الدلالات الصرفية المختلفة في استعمال صيغة مكان أخرى مثلا ، مثل استعمال ( فَعَّال ) أو ( فَعُول ) أو ( فَعِيل ) مكان ( فاعل ) أو استخدام ( فَعِيل ) بمعنى ( مفعول ) وغير ذلك .

ولعل الدلالة المأخوذة من المعجم هي أكثر الدلالات ارتباطا بفصاحة المفرد وذلك فيما يتعلق بالغرابة ، لأن معرفة الغريب مردها إلى المعاجم اللغوية ، كما أننا قد ذكرنا فيما سبق أن معنى الغرابة يختلف من جيل إلى جيل ، ومن بيئة إلى أخرى ، كما أشرنا إلى ارتباطها بالاحداث الاجتماعية التي تترك أثرها على البحث العلمي ، ونستطيع أن نقول : إننا لانستطيع أن نؤكد أن هذا اللفظ غريب

على وجه الاطلاق ، وإعنا نقول : إن هذا اللفظ غريب علينا نحن أبناء العصر الحديث ، أو غريب على يئتنا نحن أصحاب الثقافة الادبية ، أو الفنية ، أو العلمية ، كما يمكن أن نقول : إنه غريب على أهل الحضرة أو سكان المدن ، كما قد يكون غريبا على عصر دون عصر .

ونعود فنقول : إن معرفتنا للغريب مردها إلى المعاجم اللغوية ، وإذا كان الامر كذلك فهل المعاجم اللغوية تفي بهذا الغرض . . . ؟

من المنتظر أن المتكلمين بلغاتهم الاصلية في بيتهم لا يحتاجون إلى شرح الألفاظ المفردة ، لأن الألفاظ المفردة يجب أن تكون واضحة عند أصحابها ، وهذا بخلاف التراكيب التي قد يداخلها التعقيد والغموض . لكننا في الواقع نجد المتكلمين بلغاتهم الاصلية يتوقفون عند ألفاظ لغرابتها عليهم ، وعدم شيوعها بينهم ، ومن الطبيعي أن يحدث تراكم الألفاظ في أثناء نمو أية لغة خلال تاريخها ، وخاصة تلك اللغات التي حملت ألوانا من الحضارات المختلفة ، فكل حضارة تلازمها مجموعة من الألفاظ تحيا معها على السنة أصحابها ، ويصيبها للنسيان والموت عندما تحل حضارة أخرى مكانها ، أو تصيبها الكوارث المختلفة بسبب المروب ، أو كوارث الطبيعة كالزلازل والسيول . . . . . وعندما يقوم الباحثون بدراسة فترة ما من حياة هذه اللغة أو تلك فإنهم يواجهون بظائفة كبيرة من ألفاظ تلك الفترة المرتبطة بحضارة أهلها ، والتي تبدو لهم غريبة عن عصرهم وبيتهم ، بل ربما تكون تلك الألفاظ الغريبة قد اجتمعت من عصور سابقة على تلك الفترة التي يستهدف الباحثون دراستها .

فلا مفر من مواجهة الغريب الذي قد تراكم في اللغة عبر تاريخها الطويل ، فكيف يواجه المتكلم الغريب في لغته . . . ؟

برزت الحاجة إلى المعاجم مع ظهور مشكلة الغريب عند المتكلمين ، لأن ذاكرة الإنسان لا تستطيع أن تستوعب كل المفردات مهما أوتى الإنسان من قدرة على

الاستيعاب ، لأن العمليات الاحصائية التي قام بها اللغويون تبين أن الإنسان المثقف المعاصر لا يتجاوز ما يستعمله من ألفاظ في الكلام والكتابة والتأليف ، ستة آلاف لفظة ، بينما يزعم بعض المغويين أن اللغة العربية تضم أكثر من اثني عشر مليوناً من الألفاظ ، بالتحديد : اثني عشر مليوناً وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثني عشر لفظاً ، <sup>(٣٤)</sup> ونحن لا نأخذ بهذا الرقم ، لأن حصر مفردات لغة ما بالكلمة الواحدة أمر لا يمكن تنفيذه بدقة ، لأن اللغة لا تتوقف عن الأخذ والعطاء ، والنمو والموت في ألفاظها في أي وقت من أوقات حياتها ، واللغة كجسم السكان الحي ، تتجدد كثير من خلاياه ، وتموت الأخرى خلال فترة حياته بين الحين والآخر .

ويورد أستاذنا الدكتور حسن ظاظا عدة إحصائيات تبين نسبة المستعمل من الألفاظ إلى عدد مفردات اللغة نفسها ، أو إلى مجموع ما يضمه معجم ما ، مثال ذلك أن مجموع الناطقين باللغة الفرنسية لا يستعملون بل لا يفهمون مجتمعين إلا تسعة آلاف لفظة فقط من المادة اللغوية الفرنسية التي تصل موادها إلى مئات الآلاف . <sup>(٥٣)</sup> ( معجم لاروس الموسوعي الكبير ) يضم ما لا يقل عن مائتي ألف لفظة ، و ( معجم لاروس الصغير يضم أكثر من خمسين ألف لفظة فرنسية ، بالإضافة إلى المعاجم الفرنسية الأخرى .

فالحاجة إلى المعاجم لمعرفة معنى الغريب — كبيرة وماسة ، لأن اللغة أو المفردات اللغوية يجب أن تحفظ في المعاجم ، والمعجم في صورته النافعة يجب أن يكون كاملاً شاملاً . ويرى أستاذنا الدكتور ظاظا أن المعجم . . مفروض فيه أن ينبه الباحث إلى الثمين والعت من محتوياته ، إلى المفيد ، والأقل

(٣٤) انظر كلام العرب لأستاذنا الدكتور حسن ظاظا ص ١١٩ .

(٣٥) المرجع السابق ص ١١٩ - ١٢٠ .

فائدة ، إلى الضرورى ، وما لا لزوم له ، إلى الثابت الاصيل والمشكوك فيه ، أو المزيف ، وهو مطالب بأن يتكيف حسب حاجة المستمعين به ، بحيث تكون هناك ألوان شتى من المعاجم ، وهو مسئول عن حفظ اللفظة ، وعن تطويرها أيضا ، (٣٦) . ومع ذلك فالمعنى الذى تعطيه المعاجم للفظه ما إنما هو المعنى الدلالى ، وهذا يختلف عن المعنى الجمالى الذى تحدده عوامل أخرى .

وبعد ، فإن المعانى التى تعطىها المعاجم للمفردات معان قاصرة وعاجزة عن إدراك المعانى المقصودة ، أى أن المعاجم العربية خاصة ليست كل شئ فى الوصول إلى معنى الكلام أو الكلمة ، لأن هناك عناصر كثيرة لها دور كبير فى تحديد المعنى ، وهذه العناصر قد تكون غير لغوية وإنما تتعلق بالمقام الذى قيل فيه الكلام ، كما تتعلق، الكلمات أو الكلام بشخصية المتكلم ، وشخصية المخاطب ، والجو النفسى المحيط بها .

وهذه العناصر التى تتدخل لتحديد المعنى الخاص بالكلمة أو الكلام ما زالت المعاجم العربية تفتقر إليها ، ومن ثم فإن توضيح الظروف أو الجو الذى قيل فيه الكلام أمر لا يستهان به فى تحديد المعنى المراد ، لذلك وجدنا النقاد يختلفون فى لفظة ، أو جملة ، لأن المقام أو السياق الذى قيلت فيه كان عامضا ، وكذلك قد يختلف المفسرون وتعدد آراؤهم فى لفظة ، كما يختلف المترجمون فى ترجمة لفظة من الالفاظ لعدم وضوح معناها فى أذهانهم ، أو لعدم وجود معنى مستعمل لها فى اللغة المنقول إليها ، وذلك لاختلاف البيئات الاجتماعية والحضارات المختلفة .

ونأمل جميعاً أن نرى معاجم للعربية مختلفة تمتد الحاجة وتتنى بالعرض ، وهذا يتطلب منا جهودا متضافرة لجماعات مختلفة الثقافة ، كالادباء ، والعلماء واللغويين ، ورجال الفن والصحافة والسياسة ، لأن العبء الثقيل لا ينهض بحمله اللغويون فقط .

### ثانيا : علاقة فصاحة الكلام بعلم الدلالة

نستطيع أن نلاحظ من شروط الفصاحة التي حددها البلاغيون أن فصاحة الكلام ترتبط بدراسة المعنى أو الدلالة ارتباطاً كبيراً ، ولقد تنبه إلى ذلك من قبل الشيخ بهاء الدين السبكي عندما رأى أن فصاحة الكلام يختص بعضها بالمعنى والبعض الآخر بالملفظ ، فالخلوص من التعقيد المعنوي والضعف من اختصاص المعنى ، أما الخلوص من التافه والتعقيد الملفظ فمما من اختصاص الملفظ (٣٧) .

فالتعقيد المعنوي وضعف التأليف يتصلان بدراسة المعنى اتصالاً وثيقاً في نظر السبكي ، لكن العلاقة بين فصاحة الكلام وعلم الدلالة لها مجالات متعددة ، وسنحاول أن نوضح ذلك فيما يلي :

#### ١ - علاقة ضعف التأليف بعلم دراسة المعنى أو الدلالة :

من المسلم به أن وظيفة السكامة داخل الجملة أو التركيب تتحدد بالإعراب الذي يبين بعلاماته المختلفة تلك الوظيفة ، ومع وضوح تلك الوظائف يتضح المعنى الناتج من التراكيب الصحيحة لتلك الكلمات ، أما إذا حدث خلل في تلك التراكيب بسبب الخطأ أو الضعف الذي قد يطرأ عليها ، فإنه ينتج عن ذلك خلل في المعنى أو غموض فيه ، وقد نتج عن الإبهام الذي أصاب الوظائف. ويرى بعض البلاغيين (٣٨) أنه يمكن الاستغناء عن التعقيد ، لأن الضعف قد يؤدي إليه ، لكن هذا غير صحيح ، لأن التعقيد قد ينتج عن ضعف التأليف وغيره .

وضعف التأليف أحد الأسباب التي تحل بالمعنى المتعلق بالوظائف ، فالمعنى الوظيفي يعتمد على ما يؤديه الأصوات وما تؤديه الصيغ الصرفية ، وما ينتج عن مراعاة قراءات الجوز ، فالأصوات المفوية ، والصرف ، والدحو ، تنضافر لأداء

(٣٧) شروح التلخيص ص ١٣٦ .

(٣٨) شروح التلخيص ص ١٠٥ .

المعنى بحكم وظائفها ، والخلل أو الضعف الذى يصيب قواعد النحو والصرف<sup>٢</sup> يؤدى بدوره إلى إفساد المعنى .

وهذا لا معنى أن المعنى أو الدلالة تقوم فقط على المعنى الذى تؤديه الأصوات وقواعد النحو والصرف ، ولكن هناك معان أخرى تأتى بعد ذلك ، ولها بواعثها المختلفة .. ومعنى بذلك السياق أو القرائن أو المقام .

لكن قد يقبل النقاد بعض التجاوزات فى الشعر عندما لا تؤدى تلك التجاوزات إلى الخلل فى المعنى ، وذلك ما عرف بالضرورات الشعرية ، لكن بعض تلك الضرورات قد لقي رفضاً من النقاد ، وقد صنف النقاد الضرورات إلى مقبول وغير مقبول . وقد فصلنا القول فيما سبق عن ذلك .

وخلاصة القول : أن ضعف التأليف يتناسب مع الدلالات أو المعانى تناسباً عكسياً ، أى كلما خلت التأليف من الضعف ازدادت المعانى وضوحاً وتحديداً ، وكلما أكثر الضعف غمض المعنى وأدى إلى الفساد .

## ٢ - علاقة التعقيد بعلم الدلالة :

ونحن هنا لانفرق فى التعقيد بين ماهو بسبب الخلل فى نظم الالفاظ ، وهو ما يعرف بالتعقيد اللفظى ، وبين ما يكون بسبب الانتقال من معنى إلى آخر ، وهو ما قد عرف بالتعقيد المعنوى ، فلقد فصل البلاغيون بينهما ، وخصوا أحدهما باللفظ والآخر بالمعنى .

لكننا نرى فى الحقيقة أنهم ما يختصان بالمعنى ، ويصفهما الشيخ بهاء الدين السبكي وصفاً دقيقاً عندما يقول : « ... الأول أوقع فى الجمل البسيط ، وهو عدم الفهم ، والثانى أوقع فى الجمل المركب ، وهو فهم الشئ على غير ماهو عليه » (٣٩) .

فعدم الفهم ، وفهم الشيء على غير ما هو عليه ، أمران يرجعان إلى غموض المعنى ، والمعنى قد غمض حتى لم يستطع فهمه بسبب نظم الالفاظ المخالف للأصل ، كالتقديم ، والتأخير ، أو الاضمار ، أو غير ذلك بغير قرينة ظاهرة باللفظ أو المعنى ، وذلك مثل بيت الفرزدق الذى استشهد به البلاغيون :

وما مثله فى الناس إلا ملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه

أما فهم الشيء على غير ما هو عليه ، فقد نتج عن صعوبة انتقال الذهن من المعنى الذى يؤديه ظاهر اللفظ إلى معنى آخر ، وذلك لعدم الربط بين المعنى الظاهر والمعنى المراد ، أو لمخالفة العادة أو المؤلف لدى الناس ، كل ذلك وغيره يؤدى إلى سوء الفهم ، أو فهم الشيء على غير ما هو عليه ، مما قد عرف بالتمقيد الممنوى ، ولقد توقف البلاغيون عند بيت الجعاس بن الأحنف ليستدلوا به على التعميد الممنوى وهو :

سأعطي بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وفى هذا البيت نموذج لفهم الشيء على غير ما هو عليه ، وذلك أنه انتقل من المعنى الظاهر ، وهو حمود العين ، إلى السرور بالاجتماع ، وجمود العين لا يكون كناية عن التلاقى والسرور به ، وإنما هو كناية عن البخل بالبكاء عندما يراد منها البكاء ، وهذا هو المؤلف لدى الذوق ، أما أن يسكنى يجمود العين عن السرور بالتلاقى فهو مخالف للمادة ، قال أبو العطاء يرثى ابن هبيرة :

ألا إن عينا لم نجد يوم واسط عليك بجارى دمعها بجمود

فالتعميد بتوحيه اللفظى والممنوى لا بد أن يخلص الكلام منه حتى يوصف بالفصاحة ، وحتى يسأل الفهم ويتضح المعنى المراد ، فالعلاقة بين التعميد وعلم الدلالة تشبه العلاقة بينه وبين ضعف التأليف : أى علاقة عكسية .

وتوضيح ذلك أن التعميد الذى اشترط البلاغيون الخلوص منه حتى يوصف

الكلام بالفصاحة — يتحقق في أحد جوانبه بالانتقال من المعنى الذى يؤديه ظاهر اللفظ إلى معنى آخر ، وذلك كما رأينا فى بيت العباس بن الأحنف عندما أراد أن ينتقل من المعنى الحقيقى للجمود المتعلق بالدموع — إلى معنى آخر يريد تحقيقه بالكناية ، وهو السرور المترتب على التلاقى . لكن الشاعر قد عكس بهذه الطريقة لأن العادة قد جرت على جعل الجمود كناية عن البخل . فالتعقيد له صلة فى أحد جوانبه بعلم الدلالة أو دراسة المعنى . وهذه العلاقة تنمى فى الانتقال من معنى إلى آخر بطريقة تؤدى إلى الإحالة والفساد .

والانتقال من المعنى الحقيقى إلى المعنى المجازى لا بد أن يصطحب بالقرائن التى توضحه ، وتنبه من إيراد المعنى الاصلى ، والمعجز عن إيراد القرائن المناسبة يؤدى بدوره إلى التعقيد .

لكن فصاحة الكلام لا تقتصر العلاقة بينها وبين علم الدلالة على ضعف التأليف ، والتعقيد بنوعيه ، فتوجد قضايا دلالية أخرى لها علاقات وثيقة بفصاحة الكلام ، لا نستمدّها من تعريف البلاغيين القدماء للفصاحة ، ونحن لا نستطيع أن نفصل بين الفصاحة أو أى جانب منها عن المعنى ، فقد يتصور أن بعض جوانب الفصاحة قاصرة على اللفظ ، لكننا فى الحقيقة لا نستطيع أن نفصل اللفظ عن المعنى ، وينقل السبكي عن عبد المتطيف البغدادي عبارة قد استحسنا ونقلها من قوانين البلاغة ، وهى (٤٠) :

البلاغة شيء يبتدى من المعنى ، وينتهى إلى اللفظ .

والفصاحة شيء يبتدى من اللفظ ، وينتهى إلى المعنى .

وفى نفس الوقت الذى نقرر فيه استحالة فصل اللفظ عن المعنى ، لا نذهب إلى تفضيل أحدهما على الآخر ، ولا ندخل فى جدل بلاجدوى ، لأن الذهاب إلى تفصيل أحدهما على الآخر لا فائدة منه فى نظرنا ؛ لأننا لا نستطيع أن نتصور

لفظا بدون معنى ، لكن المعانى قد تتخذ وسائل أو أدوات أخرى كالإشارة مثلا .

ومن القضايا المتعلقة بفصاحة الكلام أيضا :

### ٣ - علاقة فصاحة الكلام بالحقيقة والمجاز :

مادامنا قد سلطنا باستحالة فصل الكلام عن معناه ، فإن دراسة العلاقة بين فصاحة الكلام وعلم الدلالة ننحدر بنا إلى بحث العلاقة بين فصاحة الكلام وما يتصل بالمعنى الحقيقى والمعنى المجازى .

لقد كثر الحديث عند القدماء والمحدثين عن الحقيقة والمجاز ، ويرى بعضهم أن الحقيقة هى أكثر الكلام ، وأكثر آى القرآن وشعر العرب على هذا ، وهذا هو رأى ابن فارس<sup>(٤١)</sup> ، لكن ابن جنى يرى عكس ذلك ، فأكثر اللغة عنده مجاز لا حقيقة<sup>(٤٢)</sup> ، ويذكر السيوطى أن القاضى تاج الدين السبكي يقول فى شرح منهاج الاصول : « الفرض أن الاصل الحقيقة ، والمجاز خلاف الاصل ، فإذا دار اللفظ بين احتمال المجاز ، واحتمال الحقيقة ، فاحتمال الحقيقة أرجح »<sup>(٤٣)</sup> . أما أبو اسحاق الإسفرايينى فإنه يرى أنه « لا مجاز فى لغة العرب »<sup>(٤٤)</sup> ، كما كان من رأى جماعة أن اللفظ قد لا يكون حقيقة ولا مجازا ، لكن جماعة أخرى ترى أن اللفظ قد يكون حقيقة ومجازا فى لفظ واحد ، وذلك كاللفظ الموضوع فى اللغة لمعنى ، وفى الشرع أو العرف لمعنى آخر ، فيكون استعماله فى أحد المعنيين حقيقة بالنسبة إلى ذلك الوضع ، مجازا بالنسبة إلى الوضع الآخر<sup>(٤٥)</sup> .

(٤١) الصحاحى فى فقه اللغة ص ٢١٥ ، والمزهر للسيوطى ص ٣٥٥ .

(٤٢) انظر الخصائص ، المزهر ص ٣٥٧ .

(٤٣) المزهر ج ١ ص ٣٦١ .

(٤٤) المزهر ج ١ ص ٣٦٤ .

(٤٥) المزهر ج ١ ص ٣٦٧ .

وقضايا الحقيقة والمجاز كثيرة ومتسعة ، ونحن لا نرى أننا في مقام تفصيل تلك الموضوعات ، وإنما يهمنا أن نوضح مدى ارتباط فصاحة الكلام بالحقيقة  
المجاز

ودراسة الحقيقة والمجاز يساهم فيهم النقد الأدبي ، واللغة ، فكلاهما يرى أن هذا النوع من الدراسة من موضوعاته أو مجالاته ، لكن المجاز يدخل في اللغة أكثر مما يدخل في النقد والبلاغة ، وذلك طبقاً للتصنيفات القديمة ، وإذا سلكتنا منهج الباحث اللغوي فإننا لانتفضل أحدهما على الآخر فلا نقول : إن المجاز أجمل من الحقيقة ، لأن الحكم بالمجال والقيح من مجالات النقد ، لكن الذي يعيننا ونحن نسلك هذا المسلك ، الناحية الوصفية التطورية ، فالمجاز ظاهرة من ظواهر تطور اللغة ، وهو تطور من ناحية الدلالة أو المعنى ، كما أنه عامل من عوامل النمو اللغوي الألفاظ .

والحقيقة والمجاز معناهما ليس ثابتا ، لأن الألفاظ ليست مقيدة جامدة ، لذلك لا نستطيع أن نتصور أن هناك حدا فاصلا بين الحقيقة والمجاز يفعل أحدهما عن الآخر ، لأن اللغة تنمو وتتطور كما ينمو الكائن الحي ، وخلال نموها عبر العصور والحضارات ينتقل ما يعرف بالحقيقة بين الناس إلى المجاز ، بل قد يتحول المجاز إلى حقيقة ؛ إذا أهمل المعنى الأصلي للفظ ، ثم قد يأتي وقت بعد ذلك لينتقل إلى مجاز آخر .

فالحقيقة والمجاز أيضا تصورا ثابتا دائما ، بل يطرأ عليهما التغيير بقدر ما يطرأ على أصحابها من تطور أو تغير ، ويرتبط التحول إلى المجازية بالبيئة الثقافية للأفراد ارتباطا كبيرا ، لأن الثقافة تمكن أصحابها من تصور المعاني المجردة وتدوقها ، وتدفعهم إلى رواجها بينهم ، ذلك الرواج الذي يهيء للمعنى المجازي بيئة صالحة للحياة والنمو ، فالتقبل الذي تصادفه المعاني المجازية من المتكلمين — هو العامل الأساسي في نظرنا للانتقال من الحقيقة إلى المجاز ، لأننا لو تصورنا أن قد شخصا استعمل لفظا ما استعمله لا يخالف ما لها من دلالة عند

الناس ، ولم يفهم الناس ما يهدف اليه ، أو لم يشعروا بطرافة في استعمالها الجديد ، فإننا نرى نتيجة لذلك أن ذلك الاستعمال الجديد ميت في مهده . أما إذا صادقت تلك اللفظة فهما وتدورقا من الناس ، وأحسوا بطرافة دلائها الجديدة فإنها تعلق بالسنة المعجيين بها ، ويكتب لها الحياة في تلك البيئة . وقد تنقل تلك اللفظة بمعناها الجديد إلى بيئة أخرى ، وإلى عصر آخر محفوظة بما لها من دلالة ، وقد يعتبرها ما يفقدها طرافتها وجدتها ، وربما تصاب بالذبول والموات .

ولكن تلك اللفظة التي فقدت مالها من طرافة ، وأصابتها الذبول والموات ، قد ينتشلها أديب بارع من خضم الابتدال والنسيان والموات ، ويجلوها من جديد بوضعه إيها في استعمال طريف آخر .

واستعمالات الأدباء الناهين تظل متجددة قائمة في أذهان الناس عصورا متتالية ، طالما أن تلك الاستعمالات المجازية متصفة بالتفرد والابتكار ، وتصبح من العلامات المعروفة بهم ، أو التي يعرفون بها . وتصبح لشهرتها مصونة من السطو عليها ، لأنها ذاتعة بين النقاد والأدباء ، مخصوصة ببدعيها ، وهذا يخالف الخيالات التي أصبحت عامة مشاعة للجميع ، لا يعاقب مستعملها بتهمة السرفة ، كوصف الكريم بالبحر ، والشعر بالليل ، والنساء بالظباء ، والحدود بالتفاح ، والشجاع بالأسد . وما لم يستبحه ويستولى عليه الأدباء والشعراء قول عذرة في وصف الذباب :

جادت عليها كل عين ثرة      فتركن كل حديقة كالدرهم

فترى الذباب بها يغنى وحده      هزجا كفعل الشارب المترنم

غردا يحك ذراعه بذراعه      فعل المكب على الزناد الأجذم

ويعلق الجاحظ على وصف عذرة للذباب قائلا : . . . فوصف الذباب إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالآخرى ، فنسبته عند ذلك برجل مقطوع اليدين ،

يقدم بعودين ، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ، ولم أسمع في هذا المعنى إشعر  
أرضاه غير شعر عترة ،<sup>(٤٦)</sup> ولقد عرض له بعض الشعراء المحدثين من كان يحسن  
القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى من اضطرابه فيه ، وأنه صار دليلاً على  
سوء طبعه في الشعر .

ولسنا في معرض الحديث عن السرقا ، وإنما ودنا أن نشير إلى أن بعض  
الاستعمالات المجازية والخيالية عامة تظل باقية ، لا يمدو عليها الذبول ، وتقاوم  
الموت والغناء .

والانتقال بما يعتقد أنه حقيقة إل المجاز — كما ذكرنا — مرتبط بارتقاء  
الفكر عند الإنسان ، فكثير من الالفاظ التي تطلق على مسميات معنوية يجمعها  
اللفويون إلى أسماء محسوسات ، وهذه الأسماء أو الالفاظ المجازية ترتبط مع  
الأصل المحسوس الذي انتقلت منه بشيء من المشابهة ، ولأمانع من إيراد بعض  
الالفاظ التي تتضح فيها هذه الظاهرة ، مثل كلمة :

العقل : مأخوذ من الجبل الذي كانت تربط به الدابة حتى لا تنطلق جامحة ،  
وكان يرتبط بالبعير أكثر من غيره ، ثم نقل العقل من معناه المادى إلى معنى  
بمجرد هو القوة التي تنحكم في توجيه الخواص فلا تجمع .

الشرف : وأصله الارتفاع للمكان العالى مثل قول الشاعر في رثاء ابنه<sup>(٤٧)</sup> .

هوَى ابْنِي مِنْ 'عَلَا شَرَفٍ يَهْوُلُ عَقَابُهُ صَعْدُهُ  
هوى من رأس كمرْقَبَةٍ فزَلْتُ رَجُلَهُ وَيَسْدُهُ

فالشرف هنا : المكان العالى الذى سقط من فوقه ذلك الغلام . لكنه قد انتقل

(٤٦) الحيوان ج ٣ ص ٣١١ ، انظر رسالة الماجستير التي تقدمنا  
بها الى آداب القاهرة سنة ١٩٧٠ وعنوانها « مفاهيم النقد والبلغة عند  
الجاحظ في البيان والتبيين والحيوان » .  
(٤٧) ديوان الحماسة ج ١ لأبى تمام ص ٣٧٨ .

بعد ذلك إلى المعنى المجرد ، وهو الصفة التي تدل على أن صاحبها في منزلة عالية النسب والأخلاق .

ويورد أستاذنا الدكتور حسن ظاظا مجموعة من الالفاظ التي قد ربطها بأصلها المادى القديم في اللغات السامية القديمة من ذلك كلمة (٤٨) .

جهنم : يرجعها الدكتور ظاظا إلى لفظتين ساميتين قديمتين هما : ( جى ) ( بالكسرة المائلة ) ومعناها الوادى ، و ( هِنْمٌ ) ( بكسر الهاء وضم النون المتعددة ) وهو اسم علم لقبيلة قديمة كانت تعيش في فلسطين قبل نزول العبريين اليها ، وكانوا يعبدون إلها اسمه ( ملئك ) ( بضمة تين ) ، وكان من طقوسهم أن يقدموا لهذا الإله قرابين من الاطفال الصغار يذبحونهم ويحرقونهم ، وكان لهم واد في جنوب مدينة القدس يقومون فيه بهذه الطقوس ، وكان يسمى باللغة الكنعانية والعبرية ( جنى بنى هِنْمٌ ) أو ( جى هِنْمٌ ) ، وكانت صورته في الأذهان هي صورة أزهاق الأرواح ، وإرافقة الدماء ، والثيران الملتمة والجثث المحترقة ، فاستعيرت هذه الصورة وأصبحت ( جهنم ) علما على دار العذاب في الآخرة حيث يحترق بنارها كل من حاق بغضب الله .

ونختار كلمة أخرى من الكلمات التي أوردتها الدكتور ظاظا هي :

المروءة : أصلها من كلمة المراء ، ومعناها الرجل المتميز بالقوى الحاوى لأبرز المميزات التي يمتاز بها هذا الجنس ، فبينما كلمة الرجل بمعناها الأصلية لا تدل إلا على الشخص الذى ينشئ على رجاين لاعلى أربع ، كانت لفظة المراء تدل ، زيادة على ذلك ، على ما فى الرجل من صفات تدعو لاحترامه ، كالقوة والهمة والشعور بالواجب ، وقد استعملت في لغات سامية أخرى كالآرامية والسريانية بمعنى السيد أو الرجل العظيم ، وكانت تنطق ( مار ) فيقال ( مار جرجس ) ،

( مار مينا ) ، ( مار إلياس ) .. ألخ . ومن كلمة مرء في اللغة العربية اشتقت كلمة مروءة لمجموع صفات الرجولة التي تمثل السيادة .

ومع الزمن وجدنا كلمة على نفس النقط هي كلمة :

الألوثة : التي تستعمل حديثا لمجموع الصفات التي تميز الأنثى من البشر من الرقة والجاذبية والأمومة .. ألخ .

وهذا موجود في عديد من اللغات الأوروبية فكلمة Virtue الانجليزية أو Virtù الفرنسية تعني المروءة ، وهي مشتقة من اللفظ اللاتيني Vir الذي معناه الرجل المستكمل الرجولة ، أى المرء .

أما الالفاظ التي تنتقل عن طريق التوسع المجازي والاستعارى فهي كثيرة ولا حصر لها وهي تشترك مع اللفظة المقولة منها في وجه شبه ، وكتب البلاغة وفقه اللغة مليئة بهذا اللون من الالفاظ التي انتقلت إلى دلالات مجازية ، سواء وحدها أم بالتركيب . ومن هذه التوسعات التي تقوم على المشابهة :

استعمال أجزاء الجسم للدلالة على أشياء أخرى محسوسة مثل : السن للطرف المديب من القلم الذي يكتب به ، أو سلاح كالرمح أو السهم ، ومثل رجل الكرسي ، ويد المكنت ، وأضلاع السفينة ، ونجوم المسرح ، وأذن الكوز ، ومثل شفا الجرف ، والرؤيا في المنام .

كما نأخذ من النباتات وأجزاءها بعض التعبيرات مثل : جذر الضرس ، وجذع الجسم ، بصلة الرأس ، قشر الشعر . ويقول مذيع مباراة كرة القدم : أعطى له فلان الكرة مقشرة .

ومثل اطلاق الصفات بالحواس الخمس مثل : بكاء مر ، صوت حلو ، صوت ناعم ، أسود القلب ، أبيض القلب ، عطر الذكري ، أغنى الحياة .

وهناك مجازات أخرى لا تقوم العلاقة بينها وبين معناها الاصلى على المشابهة وإنما تقوم على علاقات أخرى مثل :

- ١ — إطلاق الخاص وإرادة العام مثل : خزن البخيل الذهب والفضة والمراد المال على العموم .
  - ٢ — وعكس ذلك وهو إطلاق العام وإرادة الخاص مثل : (أهل الكتاب) والمقصود الكتاب المقدس .
  - ٣ — إطلاق المفرد وإرادة الجمع مثل : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، والمقصود كل اليتامى والسائلين .
  - ٤ — إطلاق الجمع وإرادة المفرد أو المثنى مثل : الحمد لله رب العالمين ، وشركة المياه ، وعيون الحسناء ساحرة .
  - ٥ — إطلاق الجزء وإرادة الكل مثل :  
ومن لم يند عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم  
ومثل : اجتمعت الرؤوس المفكرة ، والأيدى العاملة .
  - ٦ — إطلاق الكل وإرادة الجزء كقولنا : الدنيا حر ، والمقصود المدينة التي نعيش بها .
  - ٧ — استعمال العلم بمعنى اسم الجنس مثل : الكشمير ، البرطمان ، هذا مسيلة ، هذا عرقوب .
  - ٨ — إطلاق اسم الجنس على العلم مثل : النجاشي ، فرعون ، قيصر ، كسرى .
  - ٩ — إطلاق السبب على المسبب مثل : فلان عنده برد .
  - ١٠ — إطلاق المسبب على السبب مثل هذا الشخص مرستان .
  - ١١ — إطلاق المحل على الحال فيه : شربت كأساً ، هذه إهانة للعرش .
  - ١٢ — إطلاق الحال على المحل مثل : زرت الرسول .
- (م ٢٣ - للفصاحة)

وبعد ، فالجهاز والحقيقة يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بفصاحة الكلام ، لأن الكلام الفصيح لا بد أن يؤدي معنى ما ، حقيقة كان أو مجازاً ، وعلى قدر وضوح المعنى أو غموضه ، وعمقه أو سطحيته ، وارتباطه بالمادة أو الخيال — على قدر هذا وغيره تقاس فصاحة الكلام .

ويجب أن نوضح أن الدلالة ليست ثابتة دائماً ، كما أن الناس لا يقيسونها بمقياس ثابت ، بل إن المعنى يخضع لعوامل كثيرة تجعله نسبياً في حالات متغيرة ، كما أنه يتعرض للتغير ، وقد يكون التغير نحو التطور أو نحو الانحطاط أو نحو التخصص ، أو التعميم أو قد يكون التحول الدلالي عكسياً .

وهذا التحول بأنواعه المختلفة لا يحدث فجأة ، بل تتدخل عوامل اجتماعية كثيرة أو عقائدية ، أو سياسية لتوجيه المعنى ، وقد اجتهد اللغويون لمعرفة اتجاهات التحول الدلالي ، وقد لخص أستاذنا المرحوم الدكتور السمران ما أحصاه اللغويون من أنواع رئيسية تصدق على جميع اللغات<sup>(٤٩)</sup> وهذه الأنواع يمكن أن نوجزها فيما يلي :

#### ١ — التغير الخافض أو الانحطاطي Pejorative Change

وهذا النوع من التغير في المعنى يصدق على الكلمات التي كانت دلالتها تعد في نظر الجماعة ( نبيلة ) و ( رفيعة ) و ( قوية ) نسبياً ثم تحولت الدلالات فصارت دون ذلك مرتبة ، أو أصبح لها ارتباطات تدرجها الجماعة ، مثل : الكلمات الدائرة حول الجنس ، وحول الزهو الطبقي والألقاب ، والملابس الداخلية ، وكل ما يشير اشمزازاً ونفوراً .

#### ٢ — التغير المنصاحي Meliorative Change

ويطلق هذا النوع على الكلمات التي كانت تشير إلى معان ( هينة ) أو ( وضعيفة ) أو ( ضعيفة ) نسبياً ثم صارت تدل في نظر الجماعة الكلامية على معان ( أرفع ) أو ( أشرف ) أو ( أقوى ) مثل كلمة ( مارشال ) ( Marshal )

الانجليزية كانت تعنى فى وقت من الاوقات الغلام الذى يتعهد الافراس أى ( صبي اسطبل ) . ومن ذلك أيضا كلمة ( Angel ) التى كانت تدل على الرسول الذى يشبه موزع البريد فى أيامنا ، ثم رفع الفقهاء هذا اللفظ باستعماله للدلالة على الكائن المتوسط بين العقل الإلهى والعقل الإنسانى ، ومثل كلمة ( بيت ) الذى كان يصنع من الشجر ثم صار يعنى المسكن الضخم .

٣ — التغير نحو التخصيص أو تخصيص المعنى

#### Narrowing (Restriction) of Meaning

مثل الكلمات التى كانت تدل على أشياء عامة ثم أصبحت تدل على شيء خاص مثل كلمة ( Meat ) التى تعنى الآن فى الانجليزية ( اللحم ) وكانت دلالتها فيما مضى هى ( الطعام ) ، وكانت كلمة الفاكمة فى العربية تدل على ( كل الثمار ) ثم خصص هذا المعنى للدلالة على أنواع معينة من الثمار كالنخلة والعنب والموز والخوخ .

٤ — التغير نحو التعميم أو تعميم المعنى Expansion of Meaning

قد تصاب الكلمة بالتعميم وهو ضد التخصيص مثل كلمة الورد التى تطلق على الورد الاحمر ، لكن الناس يطلقونها على كل أنواع الزهور . وكلمة Manuscript ( مخطوط باليد ) غالبا ما يتسع معناها ليشمل المادة المكتوبة على الآلة الكاتبة . ولو أن ما يكتب بالآلة الكاتبة يطلق عليه كلمة أدق وهى : ( Typescript ) .

٥ — التحول نحو المعانى المضادة :

وهذا معروف فى لغتنا باسم الاضداد مثل ( المجون ) تطلق على الاسود وعلى الابيض كذلك ، ومثل ( بان ) بمعنى فارق وبعد ، وبمعنى ظهر وانضح .

ومن الملاحظة أن هذه الاتجاهات التي ظهر فيها تغير في الدلالة أو المعنى قد لاحظها اللغويون العرب قديما ، وقد أشرفنا إليها فيما سبق ذكره عن التوسعات المجازية ، مما يؤكد أن اللغويين العرب قد أدركوا هذه الظاهرة قبل غيرهم من اللغويين .

وهذا التحول الدلالي يمثل صعوبة أمام المترجمين ، وخاصة الذين يقومون بترجمة الأعمال الأدبية ، ولقد تنبه إلى صعوبة الترجمة منذ أكثر من ألف عام أبو عثمان الجاحظ الذي أدرك أن ترجمة الشعر تفقده كثيرا من مقوماته الفنية ويقول في ذلك :

« . . والشعر لا يستطيع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع العجب ، ولا الكلام المنشور ، والكلام المنشور المستبدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنشور الذي تحوّل من موزون الشعر . » من أجل ذلك وضع الجاحظ للمترجمين شروطا يجب أن تتوافر عندهم حتى يتمكنوا من الترجمة . . . فلا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن عليه في نفس المعرفة ، ويتبقى أن يكون أعلم الناس ، باللغة المنقولة ، والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية . . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بالسانين ، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما . » (٥٠)

والجاحظ يتصور أن اللسان لا يتمكن من لغتين معا بدرجة واحدة ، وأن إتقان إحدهما يكون على حساب الأخرى ، كما يتصور أن المترجم مهما بلغت درجة إتقانه للغة اجنبية فإنه لا يفي الترجمة حقها . . فتي كان رحمه الله تعالى ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قرّة ، وابن فخر ، وابن وهيل ، وابن المقفع مثل أرسطوطا ليس ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون . . (٥١) والجاحظ بهذا يبين صعوبة الترجمة .

(٥٠) الحيوان ج ١ ص ٧٥ - ص ٧٦ .

(٥١) الحيوان ج ١ ص ٧٥ - ص ٧٦ .

فنقل المعنى من لغة إلى أخرى أمر لا يتاح بسهولة ، كما أنه لا يتصف بالكمال وخاصة تلك المعاني التي حدث لها نقل من الحقيقة أو من المعنى الأصلي إلى المجاز . والذي ينظر في ترجمات الكتب المقدسة يستطيع أن يرى بسهولة مدى اختلاف المترجمين للنص الواحد أو حتى اللفظة ، كما حدث في ترجمة لفظ الجلالة ( الله ) عند ترجمة القرآن الكريم ، بل إن التفسيرات التي تدور حول النص الواحد تختلف باختلاف الثقافات والبيئات المختلفة والمناهج التي يسلكها علماء التفسير .

وقد ترجع صعوبة الترجمة إلى ما قد يصيب اللغة من توسعات وتضخم عن طريق بعض الظواهر الأخرى ، مثل ( الترادف ) الذي يعنى وجود لفظين أو أكثر لمعنى واحد ، مثل ما يروى من أسماء الخمر والسيف والأسد والحجر وغير ذلك . وبصرف النظر — الآن — عما يقال في الترادف أو تلك الالفاظ . ويشبه ( الترادف ) في هذا الأمر ما يعرف ( بالمشترك ) أو ( الاشتراك ) وهو يعتمد على وجود معنيين أو أكثر للفظ واحد مثل كلمة ( العين ) التي أورد اللغويون لها أكثر من عشر معان . ومن ذلك أيضا ما يعرف ( بالمتضاد ) الذي يقوم على اشتراك معنيين متناقضين في لفظ واحد ، مثل كلمة ( الجون ) التي ذكرناها آنفا والتي تطلق على الأسود وعلى الأبيض .

فالمجاز والترادف والاشتراك والمتضاد عوامل تؤدي إلى نقل المعنى إلى معان أخرى ، وذلك النقل يؤدي بدوره إلى صعوبة نقل المعاني من لغة إلى أخرى عن طريق الترجمة أو التلخيص أو غير ذلك .

وهذه العوامل التي أدت إلى التوسع في المعنى بنقله إلى معان أخرى ستتناولها إن شاء الله ، فيما سنعقده عن عيوب الفصاحة بشيء من التفصيل .

ولا يسعنا الآن إلا أن نتقل إلى ما يسميه البلاغيون ( فصاحة المتكلم ) لنوضح العلاقة بينها وبين علم الدلالة أو دراسة المعنى .

### ثالثاً : علاقة فصاحة المتكلم بعلم الدلالة

رأينا فيما سبق ما يمكن أن يؤديه الفرد من ألوان صوتية تؤثر في المعنى ، ولقد ذكرنا فيما سبق أن للفرد أثراً يتضح عند الإلقاء أو الأداء ، لجملة المتكلم لها دورها الكبير في وضوح المعنى لأن الصوت الواضح لدى المتكلمين يساعد على تحقيق الاستماع الكامل والفهم الكامل ، والعكس صحيح لأن عدم وضوح اللفظ يؤدي إلى عدم وضوح معناه في ذهن سامعه .

وإذا سلنا بأن الهدف المطلوب هو وضوح الدلالة في ذهن السامع ؛ فإن المتكلم الفصيح يتحتم عليه أن يكون حذراً ودقيقاً ومحايداً ، لأن عدم حيده قد يؤثر في تغيير الدلالة لدى السامعين . وهناك عوامل أخرى تقع على عاتق المتكلم ؛ هي مراعاة النبر الذي قد يؤدي تغييره إلى تغيير الدلالة ، وكذلك ما يعرف باسم (التنغيم) قد يؤثر أيضاً في المعنى .

وفصاحة المتكلم تتعلق بعوامل أهمها القرائن المحيطة به ، والمؤثرة فيه عند الكلام ، وهذه القرائن قد تمكن في قدراته الخاصة التي يتمتع بها ؛ كطريقته في النطق أو قوة شخصيته ، أو مكانته بين سامعيه ، كما قد تتعلق هذه القرائن بمقتضيات الأحوال أو المقام والمقال ، وهذا لا يخص الفصاحة وحدها وإنما يتعلق بالبلاغة أيضاً .

ولقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق ، ونحن نخشى الاستطراف في الحديث ، والتكرار المفسد ، كما أننا سنتناول عيوب الفصاحة فيما سيأتي إن شاء الله ، وأكثر هذه العيوب تتعلق بالمتكلم . أي أننا سنتناول الجانب السلبي في فصاحة المتكلم في الفصل القادم ، كما أننا تناولنا الجانب الإيجابي منه عندما تناولنا فصاحة المتكلم فيما سبق .

وخلاصة رأينا أن علم المعنى يرتبط مع فصاحة المتكلم بروابط وثيقة لأن المتكلم يستطيع أن يؤدي معناه بطريقة قد تزيده وضوحا وجلالا ، وقد تنقصه وتزيده غموضا وإبهاما ، بل إن المتكلم يضيف إلى المعنى أشياء كثيرة تتعلق بالمقام الذى يتحدث فيه ، وبقدرة السامعين على إدراك المعانى الجانبية ، وتدور فصاحة المتكلم فى أكثر أحوالها حول الخطيب ، لأن أكثر مقتضيات الأحوال تتعلق بأدائه ، ولأن قدرته على الأداء ومدى تأثيره يرجع إلى إمكاناته الخاصة .

ولنا عودة إلى التكلم فى الفصل القادم — إن شاء الله .